

حدود علم الفولكلور (١٠)

المشرف على تحرير : ويليام باسكوم

عرض : عبد الله أولؤ

الكتاب الذي نعرض له يعالج عددا من القضايا الجوهرية التي تمس بعض الموضوعات النظرية والمنهجية في علم الفولكلور ، تلك الموضوعات التي ينبغي أن تنال من المشتغلين بالدراسات الفولكلورية ذوى الاتجاهات المتعددة - الأدبية منها والأنثروبولوجية بوجه خاص - قدرا من الاهتمام ، وقسطا وفرا من التحييس ، أملا في أن يشهد هذا العلم مزيدا من التقدم ، وترداد أقدامه رسوخا في مجال العلوم الاجتماعية .

وتبلغ صفحات هذا الكتاب حوالى مائتى صفحة تشتمل على خمس مقالات ، يعالج كل منها موضوعا أو اثنين من الموضوعات التي ألقينا إليها . ونود أن نشير إلى أن هذه المقالات هي عرض لوجهات نظر بعض الفولكلوريين الأكاديميين ، بعضها نعرض له بصورة مفصلة بعض الشيء ، والآخر نسرده في إيجاز .

وفي المقالة الأولى التي أوردها وليام باسكوم ، يوضح الموقف الحالي لعلم الفولكلور في الجامعات الأوروبية ، والتطور الهائل الذي طرأ على البرامج الدراسية في تلك الجامعات ، والعدد المتزايد للدرجات العلمية التي حظى بها كثير من الفولكلوريين في مختلف التخصصات ، ومن بينهم دن بن أموس وهارولد شيب اللذان نعرض لبعض آرائهما الواردة في هذا الكتاب .

وقد حاول وليام باسكوم أن يوضح القضايا الأساسية عن طريق استعراض تاريخي للنظريات الفولكلورية منذ بداية القرن التاسع عشر ، وأهم القضايا الأساسية التي نثرها تلك النظريات ، ويمثل هذا العرض في الوقت نفسه اجابة على عدد من التساؤلات التي طرحها باسكوم حول الحكايات الشعبية . ومن بين هذه التساؤلات : كيف يمكن تفسير الحكايات المشابهة في مجتمعات مختلفة : هل هذه الحكايات انتشرت مع الانسان

* W. Bascom, ed., *Frontiers of Folklore*, 1977.

منذ بداية البشرية ؟ هل تفسر في ضوء الوحدة النفسية للبشرية ؟ أم في ضوء الصدفة التاريخية ، أم في ضوء الانتشار أو الاستعارة أو الهجرة أو الاختراع (النشأة) المستقل ؟

وقد أشار باسكوم الى جهود عديد من الفولكلوريين الذين قدموا تفسيرات عديدة لمثل هذه التساؤلات ومن بينهم الأخوان جريم ، ويتودور بنفى ممثل المدرسة الانتشارية وخلفه ايمانويل كوست . وانكد على انهما جذبا الانتباه الى عملية الانتشار الهامة ، وهذا هو اسهامهما الرئيسى . ثم أورد آراء مدرسة الاستعارات الرمزية ، واكد على ان آراءها لم يكتب لها البقاء نظرا للتعارض القائم حول التفسيرات التى تقدمها ، هذا فوق انه لا يوجد برهان يدعم أفكار رواد هذه المدرسة . ثم توه بعد ذلك الى جهود المدرسة الأنثروبولوجية وروادها تايلور ، وفريزر وركز على آراء فرانز يواس الذى أورد تفسيراته للقصص والحكايات الشعبية نتيجة لدراسته لثقافات التسمثيان والكواكتيل . ثم أوضح كيف انها تعكس ثقافتهم ، وتعطى صورة ثابتة لحياتهم . وفى موضع آخر يشير باسكوم الى التحليل البنائى الذى يعد أكثر الاتجاهات تطورا ، وركز على آراء المدرسة الفنلندية التى يتزعمها فيلاديمير بروب وأوضح منهجه فى دراسة الحكايات الشعبية . وأشار الى أن ذبوع التحليل البنائى فى دراسة الأدب الشعبى . ومن بين المستخدمين له كل من آلان وندس ، ومارانداس Marandas .

وعن الوظيفة يشير باسكوم بالتفصيل الى أن عناصر الفولكلور وخاصة ما يعرف منها باسم Verbal Arts (الفن القولى) لها وظائف عديدة تختلف من مجتمع الى آخر ، ومن جيل الى جيل وهذه الوظائف تتجاوز التسلية البسيطة التى تعد واحدة من الوظائف الرئيسية . وقد أعطى أمثلة لوظائف الأساطير ، الأمثال والخرافات الروائية . وهذه تتمثل فى مجال التربية خاصة فى المجتمعات البدائية ، وأنها تساهم فى نقل الثقافة من جيل الى جيل ، وتقدم على انها شكل من أشكال الضبط الاجتماعى ، وتقدم كوسيلة للإطراء على الذين يتواعمون مع المعايير الثقافية ولذم الذين ينحرفون عنها .

وقد قدم باسكوم بعد عرضه لهذه الآراء بعضا من الملاحظات تعد فى جوهرها لب القضايا المثارة ، ذلك أنه رأى أن رواد تلك المدارس المتعددة لم يلتقوا بالا الى العديد من العناصر الفولكلورية مثل الطب الشعبى والرقص

الشعبي والمعادن الشعبية وغيرها من العناصر التي يدرجها الفولكلوريون ضمن علمهم . ورأى أنه لم تنجم عن هذه الموضوعات أية نظرية يمكن مقارنتها بنظائرها الموجودة في الفولكلور القصصي . وأن الاهتمام به لم يتجاوز البحث عن أصولها وتطورها .

كما أكد باسكوم على أن هذه المدارس في تناولها للعناصر الشعبية قد أولت اهتماما متزايدا للنصوص (Texts) فقط ، في الوقت الذي أغفلت فيه السياق الثقافي - الاجتماعي الذي وردت واستخدمت فيه تلك النصوص . وأشار إلى أن الأنثروبولوجيين لم يغفلوا هذا الموضوع ، وأعطى مثالا لدراسة مالدونوفسكى لوظائف الأساطير في ثقافات التروبرياندا ، إذ اهتم بأداء وسياقات الموضوعات القصصية . كما اهتم ببيان كيف تعكس النصوص المسجلة بناء خط الانتساب الأمومي في المجتمع التروبرياندي . ونوه باسكوم في النهاية إلى ضرورة التعاون بين الفولكلوريين ذوي التخصصات المختلفة ، الأمر الذي يساعد على إعطاء علم الفولكلور مكانة أكثر تميزا ، وذلك عن طريق مجالات جديدة يمكن عن طريقها سد الفجوات القائمة بين تلك التخصصات ، والاهتمام المشترك بالمشاكل الشائعة ، وهذا - في رأيه - أخرى مما كان في الماضي من الاهتمام بتناول ودراسة موضوعات مقيمة .

وفي الفصل الثاني يطرح آلان دندس موضوعا هاما وجديرا بالاهتمام، ويشير إلى أنه من أهم القضايا المحورية في علم الفولكلور . ويتعلق بالاستفسار عن الجماعات الشعبية ، أو بمعنى آخر عن مفهوم «الفولك» (x) Who is Folk ؟ ويتساءل هل هذا المفهوم يقصد به الريفيون الذين درسهم جريم في بدايات القرن التاسع عشر ؟ . ومن المعروف أن الاستعمال السائد لكلمة « شعب » يشير بصفة عامة إلى الجماعة الصغيرة ، أو الجماعة التي يرتبط أفرادها بمصالح مشتركة ، أو علامة الشعب أو الفلاحين . ويرى دندس أن قبول هذا التعريف يشير إلى بعض الصعوبات ، إذ أنه يحدد بشكل تعسفي ميدان علم الفولكلور ، ويربط ربطا عاطفيا بين أفكار بدائي ، وريفى ، وقومى .

(x) يمكن الرجوع إلى : ايكه هو لكرانس - « قابوس مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور » ترجمة الدكتورين محمد الجوهري ، وحسن الشامى دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧٣ ، للوقوف على تعريفات متعددة لمفهوم « فولك » ، ص ص ٢٣٠ - ٢٣٧ .

ويشير دندس إلى أن الصعوبة القائمة في استخدامات مفهوم القرن التاسع عشر تكمن في استخدامه على أنه تابع أكثر منه مستقل . فقد استخدم في تناقض مع جماعة سكانية أخرى ، إذ نظر إلى الشعب على أنه جماعة من الناس يشكلون الطبقة الدنيا في مقابل الطبقة العليا أو الصفوة في المجتمع . ويؤكد دندس على أن هناك ترويجا لهذا المفهوم خاصة من جانب الذين يدعون إلى التمييز بين المجتمعات، وخص بالذكر روبرت ردفيلد وجورج فوستر . ويشير بعد ذلك إلى أنه لوقبل الفولكلوريون المعاصرون مفهوم القرن التاسع عشر الضيق للشعب على أنه « أمة ، ريفي ، متخلف » . وخاصة في تلك الأوقات الراهنة بعد أن أصاب القرويين التغير نتيجة للتصنيع والتحضر . وأصبحوا على الأقل متأثرين بالمراكز الحضرية مما أدت إلى تغيير سماتهم وخصائصهم الثقافية . هل ستصبح دراسة « الشعب » مسألة وقتية ، وبالتالي يتعرض مستقبل علم الفولكلور لأزمات حرجة ؟

ويورد دندس أجابته عن ذلك بإشارته إلى مفهوم يعتبره أكثر رحابة . وبناءا عليه ستصبح هناك إمكانية لدراسة الثقافات الشعبية في الولايات المتحدة ، كندا ، وأوروبا ، تلك الثقافات الحالية ، والتي في طريقتها إلى البعث . إذ يحدد مفهوم الشعب على أنه « جماعة من البشر تشترك على الأقل في عنصر واحد مشترك ، ويربط بينها عامل أو أكثر من عامل قد يكون اللغة ، المهنة ، الدين ، وهذه الجماعة يكون لديها تراث خاص بها . وقد تكون أمة أو أسرة ، أو اقليما ، أو دولة ، أو مدينة ، أو قرية . ويؤكد على أن هذه الجماعة تتكون من عديد من الأفراد ، الذين لا يعرف بعضهم البعض الآخر ، ولكنهم على معرفة وثيقة بجوهر التراث المشترك الذي تمتلكه تلك الجماعة ويضفي عليها طابعا خاصا . كما أن الدارس لهذه الجماعة لا يهتم بالأفراد في ذاتهم ، ولكن بتراثهم المتمثل في الحكايات ، الأساطير ، الأغاني ، الأمثال . الخ تلك التي يشاركون فيها بطريقة جماعية .

ويشير دندس بعد ذلك إلى أن التصنيع يساعد على خلق جماعات جديدة . تساعد على الإقلال من عدد الفلاحين ، الذي يشكلون في ذلك الوقت نمطا واحدا من الشعب . وهذه الجماعات ليست ريفية ولا تشكل طبقات دنيا كما كان الأمر في القرن التاسع عشر ، بل إن بعضها أو معظمها ينتمي إلى الطبقة الوسطى الحضرية ، ويصبح لها فولكلوها الخاص ، وبالتالي يمكن الحديث عن الشعبية الريفية وكذلك الشعبية الحضرية (فولكلور المدينة) .

وعن العلاقة بين الفولكلور والتكنولوجيا يدحض دندس الإنكار الذاهبة الى أن التكنولوجيا تعد من العوامل التي تساعد على اختفاء وتدهور ميدان الدراسة في علم الفولكلور . مبررا ذلك بأن تكنولوجيا الاتصال (تليفزيون ، راديو ، ..) قد ساعدت على سرعة انتقال العناصر الفولكلورية من أماكن متعددة . وفوق ذلك فإن التكنولوجيا نفسها قد أصبحت موضوعا للفولكلور ، فالعلماء التجريبيون ، والمهندسون يشكلون جماعات شعبية لها فولكلورها الخاص ، وبالتالي تخضع للدراسة من جانب علم الفولكلور .

وفي الفصل الثالث يعالج دن بن أموس موضوعا هاما يتعلق بدراسة الفولكلور في سياقه الثقافي - الاجتماعي . ويرى بن أموس أنه بالإمكان نهم الفولكلور على أنه نسق ثقاف ذو مبادئ تكاملية تميزه . وهي مبادئ خاضعة للكثف والتحليل ، كما تمثل نقطة انتقال من المجال التاريخي والمقارن الى الفولكلور الوصفي (وصف الفولكلور في سياقه الثقافي) .

ويؤكد على أن كلمة سياق Context تشير الى الإطار الثقافي العام الذي تحدث وتستخدم فيه العناصر الفولكلورية . وأن الوقوف على هذا السياق امر ضروري لفهم تلك العناصر . ذلك لأن أى دراسة لوظائف العناصر الفولكلورية تقتصر على توجيه الأذهان نحو نصوص تلك العناصر ، دون الاهتمام بالسياق ، تعد دراسة جامدة وقاصرة . فهناك علاقة جوهرية بين النص والسياق ، فالسياق يؤخذ على أنه خلفية للنص الذي يعد صلب الدراسة . وما يحدث هو تسجيل النصوص في البداية ، ثم يوصف السياق الثقافي الذي أنتجت فيه تلك النصوص .

ويؤكد بن أموس على أنه عند دراسة الأساطير قد يبدو التركيز على النصوص فقط . ولكن امتداد تلك الدراسة لتجاوز هذه النصوص نحو السياق ، يمكن أن يؤدي الى نهم أكثر اكتمالا للعنصر الشعبي .

ويشير بن أموس الى أن الوصف السياقي يتيح تحليل الاداء الفولكلوري من خلال نسق نفي متكامل في مجتمع خاص . وهو يؤكد على أنه عند دراسة أى نموذج شعبي في سياقه الاجتماعي ينبغي التركيز على ثلاثة محاور هي : المحاور الشخصية ، المحاور الاجتماعية ، والمحاور الشفهية . وقد استعرض نموذجا مفصلا ليوضح ذلك . ولعل هذا يوضح لنا أن بن أموس يركز اهتمامه الأساسي على عناصر الأدب الشعبي في الوقت الذي تغاضى فيه عن الإشارة الى أى من العناصر الفولكلورية الأخرى . وهذا

يؤيد ماسبق أن الملح إليه وليام باسكوم عندما عرض وجهة نظره الخاصة بالاتجاهات النظرية في علم الفولكلور . كما أن آراءه تعد قريبة من آراء المدرسة البنائية التحليلية . فتكديده على المحاور الثلاث عند دراسة أى نموذج شعبي في سياقه الاجتماعي يؤكد ما ينبغي أن يلتفت إليه الباحث عن دارسته لأى عنصر من عناصر الأدب الشعبي : نيهتم بالنص ومؤديه ، وبالجمهور الذى يستمع إليه ، ثم بالموقف الذى يؤدي فيه .

ويطرق هارولد شوب ، الى موضوع آخر يندرج تحت الموضوعات الهامة في دراسة الأدب الشعبي ، فعند الحديث عن الأدب الشعبي ، يستخدم مصطلح الأداء (performance) بنفس المعنى الذى يستخدم في الدراما والمسرح . ذلك لأن أى شكل من أشكال الأدب الشعبي ، يتطلب وجود مشاهد أو مستمع أو مجموعة من المشاهدين والمستمعين ، وشخص أو أشخاص يقدمون هذا الشكل لهم . وعلى هذا فان شوب Schub يوضح هذا الموضوع بطريقة متكاملة يعرض لتعريف الأداء والمؤدين وطريقة تحقيق التفاعل بينهما ، ويشير الى أن مصطلح « الأداء » ينظر اليه على أنه طريقة خاصة للاتصال في مجراه الصحيح . ذلك لأن الراوى أو المعنى لابد وان يتخذ وضعا معيناً لكي يتكامل مع هدفه الذى يريد تحقيقه ، وهذا الوضع له اهدافه الضمنية والظاهرة ، كالتعليم والانتفاع والنصح ، وبناء على ذلك تتحدد كيفية الأداء .

كما يشير شوب Schub الى أن الأداء طريقة للاستخدام اللفوى ، وطريقة للكلام . فاللغة والأسلوب ، الى جانب قدرة المؤدى ومهاراته تشترك كلها في تشكيل النصوص الشعبية المختلفة الى حد كبير . كما يمكن استخدامها لبيان دور المؤدى في صياغة مادته وتقديمها بصورة تجعل الجماعة تتفاعل به . وهو المعيار الذى يتم على اساسه الحكم على نجاحه في أن يكون مؤدياً حقيقياً متميزاً .

كما يوضح شوب كيف أن المؤدين يستخدمون الصور والنماذج لاثارة عواطف المستمعين ومشاركتهم ، ويشير الى أنهم يتميزون بتلك الاستخدامات التى عن طريقها يؤثرون في بيئتهم والبيئات الأخرى . هذا وقد استعرض شوب عدداً من النماذج للمؤدين لبعض عناصر الأدب الشعبي في أمريكا الجنوبية وركز على الشعر الحماسى .

وفي الفصل الاخير يتناول رونالد باومان R. Bauman بالتعقيب على هذه الآراء الواردة في تلك المقالات ، وأكد على أن حدود الفولكلور وتقع بين الدراسات الأدبية والأنثروبولوجية . وعلى أى الاحوال فان هذه الآراء تعكس واقعاً أيديولوجياً ينبغى على دارسى الفولكلور في دول العالم الثالث أن ينتبهوا إليه .